

أثر مختصر الشيخ خليل في الثقافة

الشنقيشية (الموريتانية) *

للاستاذ أحمد سالم محمد الخضر

قبل الخوض في تفاصيل ذلك التأثير وتبيين حجمه ومداه نشير إلى أن المنطقة قد كانت أرضية خصبة لمختلف المعارف ومنابع ندادة أزهرت فيها الثقافة وأورقت سفوحها، حيث أغصان العلم رطبة، جناها واهتصارها يتم من المرأة والرجل على حد سواء، إذ هناك رواية مهما يكن في سندها من انقطاع فإنها أصبحت متواترة بالشهرة تدفع الطعن بالشيوع ليشد أزرها في الصحة بعض الكلمات التي سارت مسار المثل في المنطقة، تلك الرواية القائلة : إنه كان في مدينة "تينيكى" ثلاثمائة بنت من قبيلة "تجكانت" كلهن يحفظن الموطأ عن ظهر غيب (1).

إن هذه المعلومة تكسب قيمتها التاريخية عندما تفتح المجال للحديث عن هذه المنطقة المطمورة وعن هذه الفترة التي هي أظلم مجاهل التاريخ بالبلد وقد تكون أكثر قيمة إذا ما أخضعت للعرض التاريخي والتحليل العلمي والاستفسار.

على أننا لم نحظ بالاطلاع على مثل هذا الانتشار الذي تم للمذهب المالكي في "تينيكى"، فلم نره بلغ هذا الحد وتلك الغاية في أي مربع من مرباعه، والحال أن هناك وفرة وثراء فيما كتب عن المذهب ورجالاته في أصقاع المعمورة.

* أشرف على هذا البحث الدكتور محمد المختار ولد اباه.

(1) المختار بن حامد : الحياة الثقافية في موريتانيا، ط 1، تونس ص : 5.

وبعيدا عن المبالغة في المدح والإطراء والتمجيد والتغني بقصص وحكايات قد يكون الأحياء وراء نسجها وتأليف خيوطها، فالواقع يشهد أن المنطقة عاشت اهتماما عميقا ورغبة عارمة لتلقي العلوم ودرسها، وهذه العلوم تتفاوت مكانتها بقدر ما يتوفر لها من العناية.

فالفكر العقدي لم ينضج - وإن وجدت بعض الخلافات حوله - بقدر ما نضج الفقه وأثرى واستوى على سوقه وقام على منهجية واضحة المعالم.

ولعل ذلك يرجع إلى أنه ساد في المنطقة مذهب واحد (المذهب المالكي) لا نجد خارجا عليه، وإن كانت هذه الحال مدعاة لعدم التطوير والإبداع - لانعدام روح المنافسة - فإنها من جهة أخرى أداة ووسيلة فاعلة لتعميق المذهب وتجذير تعاليمه حيث تكتمل وتتفاعل جهود الجميع للقيام به.

وبالمقابل فإن الفكر العقدي شهد نوعا من انعدام الوحدة المذهبية التي توفرت للفكر الفقهي، ولأن كان للأشعرية مكانة مكيئة وأتباع ضلعاء فإن هناك من قارب منهج الاعتزال حيناً وأخذ يحمل النصوص على ظواهرها حيناً آخر.

أما النحو والصرف والبيان فقد نفقت أسواقها، وتزايد الشعراء وتراهنوا على الإبداع بأجمل الصور وأحسن المعاني وأسلم الألفاظ وأبلغها.

وبلغت الغاية القصوى عناية الشناقطة بكتاب الله العزيز حفظا وتجويدا وتفسيرا وقراءة ورسمًا، ولهم في الرسم مؤلفات كانت مراجع لرسم القرآن في جميع بلاد الإسلام، أما مكانة الحديث فكانت دون القرآن من حيث الخدمات.

ولكن كل ذلك يبقى غيضا من فيض في جنب الازدهار والرواج اللذين طبعا أرضية الفقه وفروعه، ولعل ذلك يرجع بالدرجة الأولى إلى

أن الفقه يرتبط به كل فرد ويحتاج إليه في شؤونه الدينية والدينية، ثم إن الفقه يعنى بمسائل الحياة المعيشة من قبل والواقعة والمتوقعة، وكل ذلك يجعل للجميع قربا إليه واحتياجا له.

البداية الزمنية التي انطلق فيها الفقه إلى الرواج وأخذ طريقه في اتجاه الازدهار يصعب تحديدها، إلا أنهم تفقوها أول ما تفقوها بالموطأ والمدونة، وتثبت المصادر التاريخية درسهم وتدريسهم في حلق التعليم، ولا مانع في ذلك، غير أن الذي يكدر صفو المقولات بتوافر الخواطر العلمية على المدونة والموطأ، هو انعدام الخدمات التي كانت ميزة للقيمين على الثقافة في البلد، فتعالقهم وشروحهم لم تقتصر على كتاب الله العزيز ولا على أحاديث النبي ﷺ، فقد تجاوزت النحو والبيان والفقه لتطال المنطق والحساب وعلم الفلك.

ولعل دراسة الفقه كانت في أساسها تنصب على المختصر أولا، ثم تتجه إلى المكملات كالنوازل والفتاوى وقواعد الفقه ومنظومات أصوله.

ثم إن المنطقة - نتيجة للازدهار- قد شهدت مناظرات ومكاتبات علمية وشعرية استعرضت أزماتها حول الجدل القائم بين المتمسكين بفقه الإمام، ودعاة التنوير والاحتكاك المباشر بالأصول على أن الذين يحنون إلى الأصول⁽²⁾ لا يعارضون الأخذ بالفقه ولا الإقبال عليه، ومن العلماء من زاوج بين النظر في الأصول والفروع وحاول إقامة الفروع الفقهية على الأدلة الشرعية، وإرجاعها إلى مصادرها وكل ذلك من خلال المختصر* .

وإن يكن لرواد الثقافة الشنقيطية والقيمين عليها اتصاف بالموسوعية المعرفية، فإن هذا ليس عاما، فظاهرة التخصص قد ألفت بمظاهرها وبشكل جلي في هذه الساحة، ففيها اللغوي الذي

(2) من أمثال باب ابن الشيخ سيديا، وسيد المختار ابن أحمد الهادي.

* كما سيأتي في البحث المخصص للخدمات والجهود حوله.

ينكب على حفظ "القاموس" "وتاج العروس" ودواوين الشعراء، وفيها الشاعر بالاكْتساب والشاعر بالطبع يعز عليك أن تجد له وصفاً آخر، وللناقد مجال يتخصص فيه، وللنحوي والمقريء ميادينهم الجميلة الخصبة الثرية، بيد أن التخصص قد تجذر وترسخ في هذه الثقافة إلى أبعد من ذلك ففي مجال القرآن نجد شيخاً "ومحضته" من أكبر المحاضر لا تدرس إلا قراءة نافع، ومن يقريء قراءة حفص⁽³⁾ ومن هو عالم بالقراءات السبع والعشر أخذ فيها الإجازات والأسانيد.

ونجد عالماً بالفرائض، وآخر في البيوع ومهتماً بفقه العبادات لا يعبأ بفقه المعاملات يسأل أهل الذكر إن ألت به نازلة.

هذه حقيقة لا تحتاج البرهنة في المنطقة، ولعل ظاهرة التخصص واحترامها هو أحد الأسباب التي تكاملت لتفضي إلى ازدهار الثقافة الشنقيطية فمن المسلم به أن التخصصات هي التي تسمح بخدمة الفنون وإعطائها حقها من الدرس والتمحيص.

ومن الشائع عن ابن العربي أنه قال : ما غالبت ذا فن إلا غلبني ولا غالبت ذا فنون إلا غلبته.

وإذا كان الفقيه قد أسهم إسهامات جليلة في استقرار الحياة الاجتماعية، حيث كان ذا سلطة مطاعة في توجيه الأخلاق ورصد مخالفيها وتأديبهم، فإنه أخذ معظم بضاعته من مختصر خليل واستقى فروعها من شروحه، ناهيك عن كونه بذل في تحصيله جل شبابه وأوقف بقية عمره على إعطائه وإقراءه، ومن الغلو ومجانبة الصواب حصر معرفته على خليل والحكم بعدم إضافته مؤلفات فقهية أخرى لكنها تنحصر غالباً في تحفة ابن عاصم وقواعد الزقاق.

(3) محمد شيخنا ابن المرباط أباه له كتاب "نيل البش في قراءة حفص ووش" والشيخ أعمر بن محم بوب" الفارق بين قراءة حفص وورش" طبع بالسعودية مؤخرًا.

وإذا نتفحص المتون التي كانت تدرس في مجال الفقه ويعتمد عليها في الفتوى تظن علينا المصادر بغير هذا، فهل من الإنصاف أن نصف فقيها بالموسوعية وهو لم يطالع الأمهات بمذهبه ؟ لم يقرأ "الأسدية" ولا "التهذيب" ولا مختصر ابن الحاجب، حتى إن كتاب التوضيح لخليل لم يكن من الكتب الموجودة في خزانات الشناقطة ناهيك عن موسوعات الأئمة الآخرين ومؤلفاتهم الفقهية.

ولئن كان من الملاحظ في المنطقة أن الفيصل في الأحكام الحكم بمنطوق خليل أو مفهومه في مجال القضايا الفقهية، فإن ذلك لم يمنع من وجود بعض الظواهر الخلافية حول جملة من القضايا الفقهية شط فيها البعض عن متابعة مختصر خليل، مما يدل على أن الفقهاء لهم صلة بمصادر الشريعة، وعلى وجه التخصيص لهم صلة بمحتويات السنة النبوية فيما بقي جمع من القائلين على الفقه الإسلامي متمسكا بما أتى به خليل وما اعتمده (القبض، الرفع، البسطة، التأمين).

وإن صدق ما تواترت عليه المصادر من وصف الثقافة بالرواج والازدهار فإنه من الطبيعي أن تجد أحكام وقضايا علمية بعيدة عما تناوله الشيخ في مختصره.

ولعل إمام العلماء. يمثل هذه القضايا وكتابتهم حولها يدل هو الآخر بدوره على ارتباطهم بالسنة مهما كانت نوعية ذلك الارتباط.

ثم إن الذي يتضح من خلال البحوث والمؤلفات التي أنشأوها في هذا المجال تمام الرؤية وعمق الصلة وتجذر المعرفة بالمصادر الشرعية، حيث يتم عرضها واستنطاقها ومقارنتها وتطويعها إن اقتضى الحال، مستعملين في ذلك ما أوتوه من القدرات الفهمية والصناعة اللغوية.

ومن تلك المسائل الأصولية (الاجتهاد) والفقهية (الحماية، الهجرة، الجهاد، شد الرحال، سفر المرأة. شرب الشاي).

ومنها ما هو من مباحث أصول الدين (المعية، التأويل، التفويض) ونجد لهم مؤلفات تلتقي فيها أصول الدين بأصول الفقه (المجاز، الحقيقة في الآيات والأحاديث المتشابهة).

التعريف بالشيخ خليل

تكاد كتب التراجم - كما هي عادتها مع غيره - تتفق نصا ومضمونا على المعلومات التي توردها عنه، فهو خليل بن إسحاق بن موسى بن شعيب المكنى أبا المودة وأبا الضياء، وقد ذكر الحافظ ابن حجر في "الدرر الكامنة" أنه يسمى محمدا ويلقب بضياء الدين ويعرف بالجندي.. كان عالما ربانيا صدرا في علماء القاهرة، مجمعا على فضله وديانته، ثاقب الذهن، أصيل البحث، مشارك في فنون العربية والحديث والفرائض، فاضلا في مذهب مالك، صحيح النقل، تخرج من بين يديه جماعة من الفضلاء والفقهاء. وقد استفاد من بركة شيخه وأعانه تقواه وزهده وورعه، فقد أقام عشرين سنة لم ير النيل⁽⁴⁾.

ولم تطل يده في التأليف ولعل ذلك يرجع لانشغالاته الوظيفية ولدقة منهجه في التأليف وعمق كتاباته، ويبدو أن صلته بال نحو كانت وطيدة إذ شرح ألفية ابن مالك، ويشهد لذلك قوة أسلوبه وجزالة تراكيبه، وله شرح لمختصر ابن الحاجب أسماه "التوضيح" وقد وضع له القبول واعتمده الناس، وهو أكثر شروح ابن الحاجب فروعا وفوائد.

(4) محمد بن محمد بن عبد الرحمن الخطاب المغربي في كتابه مواهب الجليل ج 1/13. ط: 1972/2 والمقصود بشيخه عبد الله المنوني الذي كان يبالغ في خدمته حتى نظف له الكنيف كما في تقديم المختصر.

ويراجع لترجمته المصادر التالية :

- الحافظ بن حجر : الدرر الكامنة 2/86.

- ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة 11/92.

- السيوطي : حسن المحاضرة 1/262.

- ابن فرحون : الديباج 515-516.

- التتبكتي : نيل الابتهاج 112-115.

- محمد رضا كحالة : معجم المؤلفين 4/114.

ولا تعني هذه الإشارة الإيفاء بحق خليل في الدرس، ولا الاستقصاء في سيرته، وإنما استهدفت التدليل على مراجع ترجمته.

طبيعة المختصر ودخوله إلى المتن الدراسية

تقدم ان أشرنا إلى أن الفكر الفقهي قد نفقت أسواقه وراجت موائده بالمنطقة، وحاولنا تحليل ذلك وإرجاعه إلى أسباب موضوعية. ونعود على بدء لنقول إن الشناقطة لم يتركوا باباً من الفقه إلا أشبعوه بحثاً وملاؤه شرحاً وتعليقاً واستدراكاً، فألفوا النوازل ونظموا الشوارد بعد اقتناصها، وأصدروا الفتاوى، وعملوا قصائد الألغاز الفقهية، ونظموا، ونثروا، ورتبوا، وأكملوا، وخرجوا، وشرحوا، واختصروا الكثير من المؤلفات، بما فيها مختصر خليل نفسه كما سيأتي في محله.

ومن النافلة الحديث عن كون الشناقطة مالكيين وعن أسباب تعلقهم بالفقه المالكي وبرواية ابن القاسم العقبي وأبعد من ذلك فهم يؤمنون إيماناً كالجبال بما نقل في ترجمة الشيخ خليل عن ناصر الدين اللقاني لا يجدون حرجاً في إعلانه وترداده وهو قوله : "نحن خليليون إن ضل ضللنا"⁽⁵⁾ وارتباطهم بالمذهب المالكي جعلهم

(5) مقدمة مختصر خليل.

يرفضون بعض كتبه حرصا على الصحة والتدقيق ويعتمدون البعض الآخر، ولهم في ذلك معاييرهم العلمية ومتابعاتهم وشواهدهم المتعددة، تبعا للمغاربة كما يشير النابغة القلاوي في منظومته المختصة بهذا المجال :

وأنت براعة استهلال بعقد ما نثره الهلالي
وهو بسبق حائز تفضيلا مستوجب ثنائي الجميلا (6)

أما الكتاب موضوع الدرس فهو متولد من سلسلة اختصارات أو هو خلاصة لمجموعة من أعمال العلماء، فالأصل منها هو مدونة سحنون وقد اختصرها ابن أبي زيد القيرواني فجاء البرادعي فألف التهذيب اختصارا لكتاب ابن أبي زيد فجاء رجل المختصرات أبو عمر عثمان بن الحاجب فاختصر التهذيب، ولما توصل خليل بكتاب ابن الحاجب شرحه بالتوضيح، ولعله لم يشبع نهمه لاحتياج الطلبة، فاختصر كتاب ابن الحاجب (7). بمختصره الذي نحن بصدد دراسة تأثيره في الساحة الثقافية.

هذا عن أصل المختصر أما عن دخوله إلى موريتانيا فقد جاء في المنارة والرباط «كان مولاي أحمد الذهبي أول من أدخل مختصر خليل في شنقيط ويقال إن سيد أحمد النزاري هو أول من أدخل في وادان شرح الخطاب .

وفي وادان ظهر أول مصنف شنقيطي محفوظ وكان شرحا وضعه محمد بن أحمد الواداني* على مختصر خليل» (8).

(6) معلوم أن هذا البيت من ألفية بن مالك في النحو ويشير إلى سبق يحيى بن معط له في التأليف الذي كان سببا لفضله ولكن ابن مالك فاقه في الإحاطة والإبانة.

أما مصدر الأبيات فسيأتي في الحديث عن هذه المنظومة.

(7) الدكتور عمر الجديدي مباحث في المذهب المالكي، ص 88.

* كان حيا سنة 953هـ/1546م.

(8) الخليل النحوي : المنارة والرباط، ص : 200 ويضيف الدكتور محمد المختار بن باه أن اسمه

موهوب الجليل ويوجد بالخرانة الحسنية حسب قوله.

وقد كانت الدراسة عند الشناقطة تراتبية تدريجية الأصغر فالأكبر، والأسهل فالأصعب، تمشياً مع التطورات الفهمية والعقلية لطالب العلم، وتشير بعض الشواهد إلى ضرورة احترام ذلك الترتيب والاستجابة لمقتضيات ذلك المنهج :

علامه الجهل في هذا الجيل	ترك الرسالة على خليل
وترك الأخضرى لابن عاشر	وترك هاذين للرسالة احذر
وترك الأجرومى للالفية	وترك الالفية للكافية

وطبيعة المختصر تتمثل في كونه مؤلفاً في الفقه المالكي يقول عنه مؤلفه إذ سئل مختصراً على مذهب الإمام : «فأجبت سؤالهم بعد الاستشارة مشيراً بفيها للمدونة»⁽⁹⁾.

وكل ذلك في عبارات جزلة وجمل سامقة تصطف فيها الألفاظ، وتزدحم فيها المعاني ازدحاماً يبتعد فيه الشرط عن المشروط بعداً شاسعاً وتفصل عدة أقفاف بين المتعاطفين، ناهيك عن الاعتراضات والمبالغة، وكان له في كل ذلك منهج دقيق سار عليه في أتم الالتزام وأثبت الخطى.

وقد توزع الكتاب إلى ثلاثة وستين باباً وأربعة وستين فصلاً إضافة إلى المقدمة، وقد تميز بخلوه من العقيدة ولعل ذلك يرجع لكونه غير مؤلف للمبتدئين وإنما لطلبة الفقه الذين تدرجوا في معارجه.

تغلغله في الثقافة وتأثيره عليها

كان المختصر في نظر الشناقطة موسوعة علمية ما من نازلة إلا وله فيها حكم ومن حصله فقد حاز العلم بقضه وقضيضه :

(9) مقدمة المختصر.

يا قارئاً مختصر الخليل لقد حوت العلم يا خليل
 حصله فهما واصرف الهمة له فقد حوى مائة ألف مسأله
 نصاباً ومثله من المفهوم فإن شككت اعدده بالمرسوم
 وبلغت مكانة المختصر من الأهمية أن لا مناص لأي كان عن
 المشاركة فيه والأخذ منه :

لا يقصر المرء دون أن يكون له ميز يميز به شعرا وإعراب
 وتستقر له في الله معرفة ويستبين لديه السفر والباب
 العلم لا يخشى في نيله ضرر ولا يسد على طلابه باب
 إن كان للمال طلاب تحاوله فللعلم من الرجال طلاب (10)

وقد تلونت اهتمامات الشناقطة بهذا المختصر وأخذت أشكالا
 مختلفة فمنها الشكلي كالحرص على إتقانه وعدم اللحن فيه (11)
 واستعمال اللغز (12). وقبل أن نشير إلى مظاهر التأثير العلمية على
 مستوى الفقه والإفتاء والاعتماد المتمثل في الجهود والخدمات الجليلة

(10) الأبيات للشيخ محمد العاقد بن مايابي والسفر في مصطلحهم من بداية المختصر إلى نهاية
 الأنكحة والباب من البيع إلى نهاية المختصر.

(11) ويا مدرسا خليل فافتحن همزة إن من بعد كان تفلحن
 وشاع في ألسنكم أن تكسرا وذلك لحن قد دراه من درى

(12) نموذج : يسأل الفقيه :

«حاجيتكم قرا أبي المودة عن نصف منه حالة جاءت»
 فيجيبه أحد الطلبة :

ترافع الزوجين وهي طاهرة جاءت به الحال منها ظاهرة

وذلك في قول خليل "إلا أن تترافع طاهرا" فالحال منه إنما هي من المرأة التي هي أحد أطراف
 المستثنى في فعل ترافع.

نشير إلى أن التأثير قد طال المجالات الأدبية، فنسج الفقهاء والكتاب على منواله أقفافا ورسالات نثرية أدبية تعنى بمجالات شتى لعل أهمها :

التأثيرات الجانبية :

1 - نموذج في الفقه :

كتب أحد الكتاب معنيا بشؤون السوق :

أضحوكة على منوال المختصر تنبغي لأهل الحوانت في الحضر⁽¹³⁾
وأكثرها كلام في الأحكام الشرعية جيء به على سبيل التوجيه والتورية

باب : يجب لرجل وإن غنيا عدم اكتفاء بقليل فتح حانوت صلح لبيع بماله، ويقرض إن كان بلاه، وطلبه إن توهم وجوده لا تحقق عدمه، طلبا لا يشق به⁽¹⁴⁾ وإن تعذر سقط، واختير البناء على مال ولو قل وأجرة عليه إن علمت السلامة، وقدم فيها أقرب أوليائه ثم أجنبي وإن تساويا خير فيهما، ثم مجهول عليه سيم خير، وندب إمساكه ليتحقق وإن سأل صدق المسلم وفي جعل المخالط الموافق كالمخالف نظر، وإيثار المضطر دون عموم الأصناف وأخذ الفقير بوصفيه⁽¹⁵⁾ وبطلت بعاجز عن ركن وأمي إن وجد عالم، وفاسق بجارحة كإرسال لأهله بلا ظهور برؤية عدلين، فإن لم ير بعد ثلاثين صحوا كذبا وعم إن نقل بهما عنهما ورؤيته نهارا للقابلة، وقبل خبر الواحد إن بين وجهها، أو اتفقا مذهبها، وإلا فقال يستحسن تركه، وصحته بإسلام وعقل وذكرورة وبلوغ، وفي صبي أدرك القرية تأويلان، ولأجير أكل وشرب وشراء زبد وسواك وغسل ثيابه بكصابون، وهبة لكهلاكية بلا

(13) مخطوطة بالمعهد العالي للدراسات والبحوث الإسلامية (نواكشوط).

(14) كما في التيمم : طلبا لا يشق به كرفقة قليلة.

(15) كما في الزكاة : وأخذ الفقير بوصفين ولا يعطى حارس الفطرة منها.

إسراف وإلا ضمن، وإقراء ضيف تعين ثلاثا وهل تكره الرابعة أو تمنع خلاف.

وعفي عما يعسر كسهو بنقص أو زيادة ومنع مدين وديان وتأكد في متهم، وحلف إن ادعى رهنا أو وديعة ورهنا وقضى إن تعمد بلا تأويل قريب⁽¹⁶⁾ دينا بلا إذن ومطل الغرم، وعلى أجير فتح بصلح واعتكاف منه لعشر، وتنظيف وغلق باب، ونوم فيه إلا لعذر وإطفاء مصباح وإحياء فرن بصبح كظهر، وصح إن قدم أو أخر في الأخير على الأرجح، وطبخ بأبزار ولحم ولو من سمك، إن لم يكاتب، وفي فضليتهما خلاف...

2 - نموذج في الأخلاق :

باب : ندب لمواطن شب وإن بلا ثقافة خلق لحية وإعفاء شارب ومقدم رأس وضفر، وتأكد إن تمتع بثقافة أجنبية عند المسؤولية خلق الكل أو يستحب خلاف.

ووجب لمن عظمت مسؤوليته خلق عم ولباس جم لا حدد إلا في استقبال في كوفد، ولأولي مسؤولية وهل بقيد الجماعة الكل وبحسب العرف إن اختلفا أو مطلقا؟ تأويلات.

ولا يقلد مثقف غيره ولا كتابا إلا لكستشرق وقلد غيره مثقفا عارفا أو كتابا فإن لم يجد أو تحير مجتهد تخير والأظهر رأيه.

فصل : وحرم أدب مع كمسن وتوقيره وإنصات ولو قل كنص سني وألغي شرح وقول كصحابي فيه، وتعين زجره وإن مسنا واستحسن بنصيحته وقول برأي في القرآن وطعن في القرآن وطعن في الصحيح، ومتقدم زكي قال: وحكم عقل على شرع وعادة عليهما⁽¹⁷⁾.

(16) كما في الصوم : وكفر إن تعمد بلا تأويل قريب وجهل في رمضان.

(17) بلاد شنقيط : ص 202.

3 - نموذج في المشرب :

الأتاي ورق مزج مأؤه بسكر لا كقرنفل وحناء واستحسن مفتوله
إن وجد كإقامته لذي فضل اعتاده، وحده أربع وهو الأرجح، وفي
أجزاء ثلاثة تردد عند تعب وزمن شتاء، وبعض كحلم وهل تكره
الحناوية أو تمنع خلاف.

وهو بماء طاب وسكر اعتيد لا كباسط (نوع من الشاي) وقلة رد
وطمأنينة بين أركانه.. ورب الدابة أولى بمقدمها ولإفراح صبي دقيق
سكر وكأس من غير الأول ومص ورقة.. وندت تعين الكؤوس والتقاء
الشرب إن أمكن غير زائد حس وطرافة مجلس بعبث أبيض وحرر
لنفرد بين أرذال جدا كامرأة، وهل بقيد الجماعة أو بحسب العرف
مطلقا تأويلات، وكره تشكيك على كبراني ومسيئ.. كإدامته لمن لم
يستقل به، أو يعن عليه إلا إن نودي وصبر عليه بلا انتهاء⁽¹⁸⁾.

4 - في اللسان العام :

بعامل الاحتكاك المباشر الواقع بين الناطقين بالحسانية من
جهة وبين هذا المختصر من جهة أخرى، فقد ترسخت جملة وألفاظه
على ألسنتهم مودة مكانة لنفسها في المعجم اللغوي الحساني باقية
على حالها :

1- " وإن مع تبرد " (الصفحة 14 من المختصر) وهو في العربية
مثل "ضرب عصفورين بحجر واحد".

2 - "رب الدابة أولى بمقدمها" (الصفحة 42) يعني "أهل مكة
أدرى بشعابها".

3 - "ونذب تقديم سلطان" (الصفحة 42) يتداخل مع سابقه إلا
أن للسلطان سطوة.

(18) نسخة عندي من مخطوطة عتيقة عند إمام جامع قباء بنواكشوط.

4 - "وعفي عما يعسر" (الصفحة 12) القاعدة الفقهية "المشقة تجلب التيسير".

5 - "وملك غيره على رضاه" (الصفحة 169) لا يجوز التصرف في ممتلكات أي كان إلا برضاه.

6 - "فلا إشكال" (الصفحة 312) وهي آخر كلمة من المختصر تضرب لمن بلغ حد النهاية في الغضب والرضى والعلم...

وقد تغلغل المختصر في اللسان العام وهتك حرمت الأدب حيث استلب الكتاب الشناقطة فتعلقوا بأذياله محاكاة في الأسلوب واقتباسا من الألفاظ، واجدين فيه مادة ثرية من حيث المعنى مرنة من حيث الشكل تطبق على الحياة اليومية وتتم بها التورية والتوجيه، إذ يقول أحدهم وهو يريد تنبيه أخيه القادم على المجلس أن فيه شخصا اسمه الطاهر وهو الذي شاعت عنه تهمة السرقة وعليه أن يتحفظ منه، فاستعمل لهذه المهمة الفصل الأول من مختصر خليل الذي هو "الطاهر ميت ما لا دم له" فيقول :

أول فصل من فصول المختصر **بالبيت جالس خذوا منه الحذر**

ولعل الطاهر كان أميا لا يفقه من التورية والإيماء شيئا.

وفي هذا الجزء أضيف رأيي إلى رأي الخليل بأن هذا الأدب قد لا يتذوقه ولا يستعذبه إلا من درس المختصر أو ألم به الإماما حتى يكون على بينة من أمر خليل في المصطلح والأسلوب وطريقة تركيب الجمل.

التأثيرات الموضوعية :

تمثل هذا الجانب في الاهتمامات الموضوعية، وقد تدرجت في مراحل معينة لعل أهمها :

1 - **الحفظ والفهم** : وقد يبذل لذلك من الوقت ما يكفي لمعرفة جميع الموسوعات الفقهية المبسطة، وكان لهذه المهمة جلة من العلماء

وزمرة من "المحاضر" تخصصت في تدريس المختصر وترسيخ جذوره وتدعيم مكانته وتعميق مفاهيمه.

وفي هذه المرحلة كانت الروح العلمية لطلبة الفقه تسعى لتحصيل أكبر كم ممكن من الآراء الفقهية المختلفة غالباً مع ما في المختصر، والمخصصة له طورا والمقيدة له أونة، فانشأ ذلك ما عرف لاحقا بالشواهد والكنائش التي تطورت هي الأخرى فأصبحت تؤلف كتباً مستقلة مرتبة حسب ترتيب المختصر.

وقد ضمت هذه الشواهد الأقوال المتعددة لطلبة الإمام مالك ومواقف أئمة الفقه من جمل كثيرة ومسائل متعددة، والقصد من وراء ذلك توسيع أفق الطالب وفتح الباب أمام تطعيم المختصر بغيره من الكتب، وكانت تأتي للاستدراك والتعليق. يقول ابن متالي معلقاً على قول خليل : "وعدمها أرجح"⁽¹⁹⁾.

هنا خليل أطلق المقيدا	وقييد المطلق والعكس بدا
وقدم الضعيف للمشهور	ورد مضمرا على الظهور
ونسب الترجيح لابن يونس	وكونه للفاكهاني ما نسي

فهذه جملة من الأخطاء ارتكبها خليل ابن اسحاق دفعة واحدة ويعلق العربي بن اليماني على قوله "وفيها ندب تأخير العشاء"⁽²⁰⁾.

ونذب تأخير العشاء قليلا	ضعفه من شرحوا خيلا
وبعضهم جعله في حق	قبائل شتى فخذ بالحق

(19) المختصر ط : 1981. تصحيح أحمد نصر ص : 10.

(20) نفس المرجع ص : 23.

ويعلق آخر على قول خليل "وعلى جماعة آخره⁽²¹⁾.

فعل الصلاة في الجماعة على إيقاعها أول وقت فضلا

نقله الرهوني عن أئمة مخالفا فيه أبا المودة

وتارة تهتم بالشروح والضبط كما في قول أباه يحظيه بن عبد
الودود :

وقيد رمح بزوال الحمرة فسر في الحديث دون مرية

قيد وقاد وقداة والقدا يقال للمقدار حيث وجدا

وتأتي في تكميلها ومتابعتها لتساعد على التخلص من رتبة
الحرام ووطأة الحرج :

وأخذنا من شارب وعنقه مجوز لدى المناوي ذي الثقة

وما به يحصل حس الهيئة يجوز لا ما زاد فوق القبضة

وتطرق أبوابا لم يطرقها خليل :

وحلق لحية لأنثى واجب وهكذا عنفة والشارب

والترك مثله وبعض قد منع لأنه تغيير ما الله صنع

إلى غير هذا من المسائل المهمة والإضافات القيمة
والاستدراكات الجريئة التي ضمتها الكنائش في ثناياها، وقد
استهدف إيراد هذه الأبيات التدليل على طبيعة هذه الملحقات
والمكملات.

2 - وضع النوازل والفتاوى بجانب نصوص المختصر حفظا

لجهد الفقيه وتقديرا له إذ يعتمد الحكم الصادر عنه مرجعا لكل

القضايا المماثلة، وقد وضعوا عشرات النوازل والفتاوى ونظموها ومن أهم النوازل وأكثرها انتشارا :

- نوازل سيدي عبد الله بن الحاج إبراهيم،

- نوازل الكصري...

وكانت هذه النوازل من أهم ثمرات الدراسة بالمنطقة ولئن كانت هذه النماذج تدل على الخدمة والقبول والإقبال فإن المبحث القادم يمثل أهم نموذج للعناية بالمختصر.

جهود الشناقطة في خدمة المختصر

لأن كان الحفظ لنصوصه والتأمل في معانيه والتحقيق في فضاءاته والغوص في أعماقه والاستدراك والتكميل بوضع الشواهد والنوازل يمثل شواهد حية ونماذج ناطقة لمكانته المكيمة عندهم، فإن الشرح والنظم والاختصار والتأصيل تعكس كلها مدى تأثير المختصر في الثقافة واستحواذه على أصحابها، فالأقاويل التي يصدرها خليل تبقى محل تقليد حتى ولو خالفت الراجح من أقاويل أئمة المذهب، مما يعني أن إخراجهم للحكم يكسبه ترجيحا في نظر هؤلاء ولعل ذلك يرجع في منطقتهم العلمي إلى أمرين :

1 - أن الشيخ خليل أقعد بالمذهب من سائر المتأخرين

2 - أنه اعتمد في كتابه على تخريج الراجح والمشهور مما جعل العدول عن أقاويله صعبا مادام يقصد الترجيح في تقريراته.

شرح المختصر :

هذا الموضوع حري بأن يكون موضوع أطروحة فالشروح تعد بالعشرات والمقارنة في اختلاف أساليب الشرح وطريق المناقشة للخلافات تحتاج الوفرة من الوقت، على أنه من المحتوم الإشارة إلى

تلك الآثار التي ظلت بأيدي الطلاب يحتضنونها تقاوم عوادي الزمن لتبرهن بنفسها على نفاستها وقيمة مضامينها.

ونشير هنا إلى أن الاهتمام بشرح المختصر قد اكتسب طابعاً تجزئياً فشارح يسلط أضواءه على البيع وآخر يشرح اليمين وثالث يعنى بفقہ العبادات ورابع تشغله الأنحكة.

ولنأخذ مثالا على الاعتناء العلمي بأجزاء المختصر، فباب الفرائض هو آخر باب من أبوابه ومبلغه أربعة أقفاف، تضافرت عليه الجهود وتوالت أعمال العلماء حوله، والقائمة التالية تدل على أسمائهم وسني وفاتهم إن تيسرت معرفتها.

إسم المؤلف	طبيعة العمل	المرجع
1 - الحاج أحمد اند عبد الله المحجوبي (1140هـ)	نظم الفرائض	ابن حامدن فهرس المؤلفين ومؤلفاتهم، ص 17
2 - الشيخ سيدي الكبير (1284هـ)	شرحها من المختصر	مخطوط (رقم 225) بالمعهد العالي للدراسات والبحوث الإسلامية بنواكشوط
3 - المختار بن بيدح الديماني (1309هـ)	نظم الفرائض	ابن حامدن ص : 81.
4 - محمد المختار بن محمد الكريم اليماني (1324هـ)	رسالة	نفس المرجع ص : 69
5 - الشيخ أحمد بن الشيخ محمد الحافظ العلوي (1325هـ)	نظم	نفس المرجع ص : 26.
6 - محمد يحيى الولاتي (1330هـ)	شرح نظم أنباله لها	نفس المرجع ص : 72.

نفس المرجع ص : 2.	نظم	7 - أبو بكر بن سيد أحمد الديماني (1363هـ)
نفس المرجع ص : 26.	نظم	8 - الشيخ الترات بن العباس القلقمي (1365هـ)
نفس المرجع ص : 4.	نظم	9 - أحمد بن بوي الحسني (1386هـ)
نفس المرجع ص : 69.	شرح	10 - محمد بن محمد الناطقة التندغي (1383هـ)
نفس المرجع ص : 72.	تبيين الغوامض على المعين في الفرائض	11 - محمد الهبة بن الشيخ سيد الخير (1383هـ)
نفس المرجع ص : 11.	شرح نظم الفرائض لمحمد سالم بن الما	12 - منى بن عويلم (1383هـ)
مخطوط رقم 340 المعهد العالي		13 - الكصري (1383هـ)
مخطوط رقم 285 المعهد العالي	شرح الفرائض	14 - عبد الحي بن انتابه (1383هـ)
مخطوط رقم 280 المعهد العالي	نظم	15 - أحمد بن انجبان (1383هـ)
مخطوط رقم 191 المعهد العالي	شرحها شرحاً وافياً	16 - أحمد بن عمر الناطقة (1383هـ)

إلى غير هؤلاء من محمد المختار بن الأفضل الحسني⁽²²⁾ ومحمد البوصيري بن سيد المختار الجلكني⁽²³⁾ ومحمد المختار بن حيد التاشدبيتي القلاوي⁽²⁴⁾ ومختار بن محمد بن أغلمت⁽²⁵⁾ وحمى الله المعروف بأنباله التشيتي⁽²⁶⁾ وأحمد بن الحسني⁽²⁷⁾ وغيرهم كثير.

أما الطرر فإنها أخذت طريقها إلى الكثرة من أوسع الأبواب وأكثرها انفراجا، حيث يطرر كل طالب ويضع الهوامش، ولم يكن أهل العلم بالمنطقة يعتمدون على الطرر كلها كما نستفيد من قول النابغة القلاوي :

وكل ما قيد مما يستمد	في زمن الإقراء غير معتمد
وهو المسمى عندهم بالطره	قالوا ولا يفتي به ابن حره
لأنه يهدي وليس يستد	عليه وحده مخالفة الفند
كطرة الجزولي وابن عمرا	على الرسالة أمير الأمرا

ولم يقتصر الحد على هذا الموقف الساخر الذي يحمل في طياته النقد اللاذع والتهوين الكامل للطرر، إضافة إلى إفراغها من قيمتها العلمية، بل تجاوز ذلك ليقول :

بل أوجبوا تأديب من أفتى بها	ما لم يكن نال المقام النابها
وهي إلى محلها منسوبة	بخط موثوق به مكتوبه
ولم تخالف ما في الأمهات	من نص أو قاعدة فهات

(22) ص : 65 من الفهرس.

(23) منظومة وشرحها ص : 30 م س.

(24) له نظم أسماء زورق الخاض في علم الفرائض.

(25) ص : 85 من الفهرس.

(26) ص : 19 منه.

(27) ص : 3 منه.

لا فرق بينها وبين ما نقل في سائر المصنفات وعقل...
 وحيث لم تكن بهذا الحال فلم تكن من الكلام الحال
 قلت ورب جاهل التقاضي يفتي الوري بطرة ابن القاضي
 وطرة ابن رار والخطاط كلاهما في غاية انحطاط
 ولا نملك التخلص من هذا النظم قبل إكمال ما يتعلق بالطرة
 حيث المفتي بها منحط جدا

عن رتبة التصحيح والتمريض رضا يبیت جاء في قريض
 أم الحليس لعجوز شهریه ترضى من اللحم بعظم الرقبه
 فإن يقل مالي سوى ذي المرتبة قلنا فما على السكوت معتبه
 فما به غيرك عما للنفس لا تطلب به مقاما
 بل طرة ابن القاضي الأولى لعبت أيدي التلاميذ بها فذهبت
 أخبرني الشيخ حبيب الله بذاك وهو ثقة والله

وعلى الرغم من أن الطرر لا اعتماد عليها كطرة التنواجوي بن
 رار وأشفع الخطاط وابن القاضي فإن البعض منها حظي بالاعتماد
 والقبول. ولعله توفرت فيه الشروط السابقة إذ أصبح من جملة
 الأعمال العلمية محسوبا لأصحابه، فالإمام ابن مكي اللمتوني له طرة
 على خليل⁽²⁸⁾، والحاج القاضي بن أبي الجود الحسني ألف طرة على
 خليل⁽²⁹⁾، كما أن لعبد الله بن ميجة الشقروي الحسني طرة
 هو الآخر⁽³⁰⁾ وللشيخ بداه بن البوصيري كناش على فقه الباب وكناش
 على فقه السفر هذا إضافة إلى حاشية تحت التأليف⁽³¹⁾.

(28) ص : 11 من الفهرس.

(29) ص : 17 منه.

(30) ص : 47 منه.

(31) ص : 14 وتحصل منها أن الطرراتي ثبتت في أيدي الناس تبلغ سبع طرر.

أما عن التتميم والتعليق فإننا نجد إشارة للأعمال التالية :

- تتمة خليل بنظم طويل لمحمد عبد الله بن الشيخ أحمد الجكني⁽³²⁾.

- محمد سيد بن برو السمسدي (1260هـ) : التيسير والتسهيل لما أغفله خليل⁽³³⁾.

- محمد بن باباه الكوناني (1382هـ) : تعليقات على فقرات من مختصر خليل⁽³⁴⁾.

- محمد بن محمد الصغير بن أمبوجه التيشيتي : تعليق على مختصر خليل⁽³⁵⁾.

- محمد محمود بن أحمد الواثق التندغي : تعليق على مختصر خليل⁽³⁶⁾.

- الشيخ محمد حبيب الله بن حرمة التاكنيتي (1337هـ) تعليق على مختصر خليل⁽³⁷⁾.

- ورغم أن الساحة العلمية والرأي العلمي العام لا يساوم في مكانة هذا المختصر، فإننا نسمع اليوم من يردد الكلمات التي تشجع الطلبة على التخلي عن الفروع والاحتكاك المباشر بالكتاب والسنة، وانطلاقاً من كون خليل لا يغني عن الحق شيئاً، غير أننا لم نكن نتصور نقداً له وتجريحاً أعظم مما ألحنا إليه سابقاً في إطار الاستدراك والتعقيب والتصحيح الذي هو أمانة علمية يسأل المرء عن

(32) ص : 61 من فهرس ابن حامد.

(33) ص : 59 منه.

(34) ص : 57 منه.

(35) ص : 54 منه.

(36) ص : 66 منه.

(37) ص : 27 منه.

التقصير فيها أمام الله حسبما في إيماءات الكتاب العزيز. وعلى الرغم من ذلك فالمصادر التاريخية تشير إلى وجود جمع من المعارضين كانوا يوجهون إليه سهام النقد ونبال التجريح ولا أشد برهنة وأنصع تدليلاً من وجود أثر علمي بعنوان : «الانتصار لخليل ومقلديه»⁽³⁸⁾ لمؤلفه محمد بن أحمد الصغير بن انبوجه التيشيتي.

ومن العلماء من اهتم بتخريج ضعاف الأحكام الواردة به وتنوع ذلك بين النظم والنثر. فقد ألف في ذلك :

- العربي بن اليماني كتاباً منظوماً منه الأبيات التي أشرنا إليها من قبل⁽³⁹⁾.

- محمد عبد الله بن اندوز المحجوبي (1220هـ) : «التوفير لما أهمل القاضي سمبير» وهو تعليق على : «فتح الرب اللطيف في تخريج بعض ما في المختصر من الضعيف» للقاضي الأرواني (ت 1180هـ). وهناك مجموعة من الشروح ذات الطابع الكمالي في عنايتها بالمختصر. وسنحاول أن نرتب الأعمال حسب وفيات أصحابها مشيرين للمخطوط منها والمطبوع :

1 - أبو بكر ابن الحاج أحمد (1280هـ)	مخطوط	شرح	فهرس ابن حامدن ص 45
2 - محمد الحافظ العلوي (1245هـ)	مخطوط	شرح النصف الأخير	نفس المصدر ص : 37.
3 - عبد المالك بن النفاع الداودي (1252هـ)	مخطوط	حاشية	نفس المصدر ص : 52.
4 - الشيخ محمد بن عبد الوهاب الفلالي (1254هـ)	مخطوط	شرح	نفس المصدر ص : 36.

(38) ص : 54 منه.

(39) وهي : وندب تأخير العشا قليلا
وبعضهم جعله في حق قبائل شتى وخذ بالحق

5 - الشيخ محنض باب (1277هـ)	طبع	المسير الكبير والصغير	طبع في بيروت ورأيت منه الجزء الأول والثالث.
6 - الشيخ سيد الكبير (1284هـ)	مخطوط	مرآة النظر في خبايا المختصر	الفهرس ص : 30.
7- محمد بن محمد سالم مجلسي (1302هـ)	مخطوط	اللوامع الدرر في هتك استار المختصر	عند ذويه بخط جميل في ثمانية أجزاء
8 - محمود بن محنض باب (1316هـ)	مخطوط	حاشية على الميسر	الفهرس ص : 79.
9 - محمد مولود بن أحمد فال (1323هـ)	مخطوط	مفتاح الظفر في شرح المختصر	نفس المصدر ص : 71.
10- محمد يوسف بن عبد الحي (1328هـ)	مخطوط	شرح	نفس المصدر ص : 77.
11 - محمد الأمين بن أحمد زيدان جكني (1335هـ)	طبع	النصيحة	طبع بالسعودية في ثلاثة أجزاء
12 - طالب أبو بكر بن أحمد مصطفى (1335هـ)	مخطوط	فيض الجليل	الفهرس ص : 45.
13 - الشريف بن سيدي أحمد بن الصبار (1340هـ)	مخطوط	شرح	ن - م ص : 25.
14 - محمد عبد الله بن يحظيه (1347هـ)	مخطوط	منح الجليل	ن - م ص : 62.
15 - محمد فال بن باب (1349هـ)	مخطوط	شرح باب البيع	ن - م ص : 63.
16 - البشير بن مباركي اليمسي (1354هـ)	مخطوط	حاشية لعزو الأقوال	ن - م ص : 15.
17 - محمد الخضر بن ميا با الجكني (1354هـ)	مخطوط	إيضاح مختصر خليل بالذاهب الأربعة وأصح الدليل	مخطوط في مكتبة في المدينة المنورة وعندي منه نسخة مصورة

18 - محمد بن الغزالي الحسني (1362هـ)	مخطوط	شرح السفر	الفهرس ص : 63.
19- عبد القادر بن محمد سالم (1364هـ)	مخطوط	الثمان الدرر في تبين معاني المختصر	عند أحفاده بنواكشوط
20 - محمد بن باباه الكتني (1382هـ)	مخطوط	شرح باب السهو	الفهرس ص : 58.
21 -أحمد بن محمد عيّن اللمتني	تحت الطبع	مغني طلاب المختصر عن الحواشي والطرر	درست عليه البيع من المختصر.
22 - أحمد بن سيد أحمد الهادي	مخطوط	شفاء الغليل	الفهرس ص : 6.
23-المختار السالم التندغي	مخطوط	شرح مشكلات خليل	نفس المصدر ص : 82.
24 - سيد الفاضل الحسني	مخطوط	حاشية	ن - م ص : 31.
25 - مختار السالم بن محمد عباس التندغي	مخطوط	جزء العبادات	ن - م ص : 82.
26 - سيد علي بن أحمد زيدان الجكني	مخطوط	حاشية على النصيحة	ن - م ص : 23.
27 - بداه بن البصري	تحت التأليف	حاشية	عند مؤلفه.
28 - أحمد بن أحمد المختار وكلاهما لا يزال حيا	طبع	مواهب الجليل من أدلة خليل	طبع في قطر

وهناك الكثير من أعمال الشرح والتعليق طالتها عوادي الزمن وعبثت بها أيدي الإفساد وليس بمستطاعنا ذكر الخصائص والمميزات لكل شرح فذلك مترتب على التمعن والتمحيص اللذين يقتضيان مقاما آخر.

ناظمو المختصر :

يبدو أن نظم المختصر لم يكن اهتماما وليدا لدى الشناقطة. فقد نظمته الشيخ حسن السوقي في أزيد من عشرة آلاف بيت منه نسخة في مكتبة عبد العزيز بن عبد الرحمان آل سعود بالمدينة قرب الحرم النبوي، وعلى النسخة كلمات كتبها محمد حبيب الله بن مياها تفيد أنه اشترى الكتاب بمجموعة علمية من الكتب، وقد تغلغل النظم في الثقافة الشنقيطية ودخل مختلف الفنون حتى أصبحت توصف بأنها ثقافة نظامية. لذلك فقد اهتمت جماعة من العلماء بنظم المختصر:

1 - يقول الشيخ محمد المامي بعد المقاطع المألوفة في مؤلفاتهم من الحمد والبسمة والتعريف بالنفس والمذهب والمكانة والنسب :

ويعد فالمقصود أن يستوفى	عشرة أو عشرون ألفا زحفا
تحيط بالمجموع في المختصر	وما انبنى عليه للمهتصر
وانني ملتمس المعانر	بالسن والبدو من الأكابر
ما سبق الأشد كالصبوة	نادرة من قبلها النبوة
ولم تكن معاهد الأعراب	أهلا لتأليف ولا إغراب
وقد أذنت في الصلاح خارجه	لعل عن القياس خارجه
لكل ذي لب أخي شبرين	من العلوم كأي شبرين
ممارس كواعب البيان	من بعد ذوق المطل والليالي
وهصر الأغصان من فروع	عيدان فقه صعبة الطلوع
وهز من جنوعها بالساعد	من الأصول ومن القواعد
مع أنه لا بد من علم النسا	وهو علم النحو عند الرؤسا
ومن تطفل على المناطقة	بعد القصار في الطوال الرائقة
وجيد اللغة والتصريف	للإسم والفعل بلا تحريف

ويبرز إقدامه على النظم قائلا :

والنظم قد يوجد منه منسجم وبالمشكك الذي منه انسجم
وإن يكن نثر ابن اسحاق درر ونثره أولى به جراب
هذا وإنني عالم بظلمي وإنما أتيت بالسلك
بعد السؤال من بني الزمان لكن سؤال بلسان الحال
وقد يؤلف بلا سؤال وإنما أخذ باليمين
فليحضر الناقد كل النسخ وليحذر الجمود من لم يرسخ

وبعد المقدمة ابتداء بباب رفع الحدث :

وإنما يكون رفع الحدث بمطلق الماء وحكم الخبث
وهو ما عليه ماء صدقا بغير قيد فيصير مطلقا
وإن جمعته من أشجار الندى أو ذائبا من بعد ما قد جمدا
أو كان سؤرا لبهيمة الرجل أو حائض أو جنب أو ما فضل
عن طهر الآخرين أو ما كثرا في خلطه بنجس ما غيرا
أو شك هل يضر في المغاير أو غيرت رائحة المجاور
وإن بدهن فوق سطح الماء أو قطران راح في الوعاء
أو ماله تولد منه يصح أو بقرار الماء أو بما طرح

ولو بقصد من تراب أو ملح وسلب الملح على ما قد رجع
وفي اتفاقهم على السلب به إن كان مصنوعا تردد فيه
ليس بماء لونه تغيرا أو طعمه كالريح فيما اشتها
بما له فارق غالباً فقس بعادة من طاهر أو من نجس
كالدهن خالط أو البخور وحكمه كحكم ذي التغيير⁽⁴⁰⁾

وهكذا نجد الالتزام الشديد بالفاظ خليل والمحافظة على إيرادها وفقاً لأسلوبه.

ولا يبتعد الشيخ محمد الأمين الشنقيطي (آب) في نظمه للبيع عن هذه الصيغة :

الحمد لله الذي قد ندبا لأن نميز البيع من لبس الربا
ومن بالمؤلفين كتبنا تترك أطواد الجهالة هبا
تكشف عن عين الفؤاد الحجا إذا حجاب دون علم ضربا
قد نال منها الواردون مشربا أجلى صدا الجهل وفاق الضرب.
ويعد إن البيع من أمور جهل الفتى لها من المحذور
لأن عمرا ربما احتاج إلى ما عند زيد من طعام مثلاً
والله قد كلفنا أن نعلم ما الله فيهن به قد حكم
فهاك منه نبذة صحيحة جل اعتمادها على النصيحة
وربما أخذت من زرقان أو الرهوني أو البناني
وربما أخذت عن تحرير من الدسوقي أو الدردير
وربما أخذت في كتابي هذا من المواق والحطاب
وإن أقل أبيع ذا أو أمنعه فإنما ذاك لنقل أتبعه

(40) عندي جزء منه استنسخته من نسخة في قسم البحث بإدارة المعهد العالي للدراسات والبحوث.

ويشرع في البيع قائلًا :

وَمَسَاوَاةُ الْإِشَارَةِ أَحْكَمُ نَطَقًا لِأَبْكُمْ وَغَيْرِ أَبْكُمْ
وَجَازَ أَنْ تَبْتَاعَ شَيْئًا أَنْتَ لَا تَدْرِي أَزِيدَ بِهِ أَمْ الْعَلَا...
وَحَكَمُوا بِكَوْنِ الْإِنْتِفَاعِ مِنْ حَافِظٍ إِلَى الضَّمَانِ دَاعٍ
وَلَيْسَ فِي النَّادِرِ مِنْ ضَمَانٍ كَذَا لِعَبْدِ الْبَاقِي وَالْبَنَانِي
وَالْتَوَدِي بِالْإِطْلَاقِ فِيهِ حَكْمًا وَعُضِدَ الرُّهُونِي مَا قَدْ زَعَمَا⁽⁴¹⁾

ويذهب محمد يحيى ابن سليمة مذهباً آخر إذ يحذف من نظمه ما لا يكون واقعاً أو ما تكرر وروده :

هَذَا وَذَا نَظَمَ لَمَّا فِي الْمَخْتَصَرِ خَلِيلَ إِسْمِهِ بَفَتْحِ اللَّهِ قَرِ
نَظْمُهُ نَجَلَ سَلِيمٍ فِي دَرَرٍ أُبْيَاتِهِ تَحَاكِي شَمْسًا وَقَمَرِ
قَدْ رَامَهُ مِنِّي بَعْضُ الْفَضْلَا ثُمَّ أَجَبْتُهُ بِحَمْدِ ذِي الْعَلَا
مَعَ حَذْفِ مَا لَيْسَ بِوَاقِعِ الْأَبَدِ أَوْ كَانَ مِنْهُ ذَا تَكَرَّرَ وَرَدِ⁽⁴²⁾
ونظمه كل من :

- محمد بن حبيب اليدمسي (1302هـ) "المختصر في نظم خليل والميسر"⁽⁴³⁾.

- محمد الجكني نظم النصف الأول من خليل⁽⁴⁴⁾. وسيدي بن حبيب الله الجكني الرمضاني نظمته بالعربية والحسانية⁽⁴⁵⁾.

(41) يوجد هذا النظم بملحق أعده أحمد محمد الشواف ضمن دراسته لشخصية الشيخ محمد الأمين

الشنقيطي (السنة الدراسية 95 و96 بالمعهد العالي للدراسات والبحوث).

(42) يوجد هذا النظم في مخطوطات المعهد العالي، رقم الإيداع 1360.

(43) فهرس ابن حامدن ص 54.

(44) فهرس ابن حامدن ص 58.

(45) نفسه ص : 24.

– حبيب بن الحسن بن عبد الحي (1329هـ) (46).

– أحمد فال بن بي الجكني (1372هـ) بمكة (47).

– أحمد بن حبيب الله بن عبيد الحسني (1350هـ) نظم السفر والباب وشرحه (48).

الأعمال العلمية العامة :

يمكن تناولها من خلال عدة أوجه :

1 – **المحاذاة** : وجدت هذه العبارة مرارا وتكرارا في فهرس المؤلفين ولم أجد نموذجا منها حتى أتمثل تصورا عن طبيعة الاحتذاء ومن هؤلاء المحاذين :

– أحمد بن محمد الحاجي له نظم في الفقه حاذى به خليلا (49).

– أحمد بن محمد محمود الحسني ألف نظما بلغ تسعة آلاف بيت محاذيا لخليل (50).

– محمد اليدالي الديماني (1166هـ) له تأليف في الفقه على نحو خليل (51).

ولعل هذه المحاذاة تعني أن الواحد منهم يتناول أبواب الفقه حسب تناول خليل لها أو يقتصر على مجموعة المسائل الفقهية التي تم التعرض لها في المختصر.

2- **الاختصار** : ولا تأخذ الغرابة في مثل هذه الاهتمامات مسلكا بعيدا مفرطا في الإغراب إلا عندما تجدهم استكثروا مختصر خليل فعملوا له اختصارات.

(46) الفهرس ص : 6.

(47) الفهرس ص : 7.

(48) الفهرس ص : 5.

(49) الفهرس ص : 8.

(50) الفهرس ص : 9.

(51) الفهرس ص : 77.

ومن أهم هذه الأعمال مؤلف الشيخ سيد المختار الكنتي المخطوط بخزائنه في الزاوية التي تحمل اسمه بنواكشوط وقد أسمى هذا الإختصار "هداية الطلاب"، ولعله احتاج إلى شرحه فألف "فتح الوهاب على هداية الطلاب" وكلاهما بالزاوية مبذول لمن أراد الاطلاع لا النسخ ولا التصوير.

ولعبد الله بن الحاج حماد الله (1209هـ) مختصر على مختصر خليل كما ذكر ذلك المختار في فهرسه⁽⁵²⁾.

وجاء من بعد هؤلاء رجل الاختصار في المنطقة الذي اختصر أكثر من سبعة عشر كتابا فاختصر خليلا بعد أن نظمه وشرحه وشرح النظم وما كان ليكفيه حتى وجد نفسه يعمل له اختصارا.

3 - نظم بوطالحية : وقد لخص فيه مؤلفه أبوابا معرفية تشكلت موادها وإن توحدت في القيمة العلمية وقد حلى نظمه بأنواع الاقتباس والتضمنين إضافة للجناس المستديم والمطابقة الغالبة الشيء الذي يلحظ في جميع أعماله الشعرية.

وبالإضافة إلى الكتب المؤلفة في محيطه فإنه تناول مؤلفات المشاركة والمغاربة متخلصا من ربة ما أورده عنهم⁽⁵³⁾.

هذا ولما كان جل الناس	لما به الفتوى غدا كالناسي
فخلط الصحيح بالسقيم	وخلط المنتج بالعقيم
من جهله أصبح في حجاب	لم يدر بين الفرس والحجاب
جلبت في ذا النظم بعض المعتمد	وفيه ذكر بعض ما لا يعتمد
من قول أو طرة أو كتاب	لقاصد الفتوى بلا عتاب
وكلما أطلقت عزوه انحصر	من سائر الكلام في نور البصر

(52) الفهرس ص : 48.

(53) المرجع في هذه الأبيات نص المنظومة في مخطوطة في دارة البحث من المعهد العالي رقم إيدعها 189.

وربما سقيت من نظامي أو نظام الغير كل ظام
وينزع في إشارة خفيفة إلى إثبات أن هذا المجال من المعرفة
قد كان في فترة من الفترات عظيم القيمة جليل الفائدة :

فلاستعانة من الله البديع أطلبها ثم بتأواع البديع
سلكت فيه مسلك الجمهور من نصرة الراجح كالشهور
يعرف قدره من ألقى السمع وهو شهيد طاعة وسمعا
فكل ما فيه صحيح منجلي في الخير المثبت والأمر الجلي
أحييت فيه ذكر علم دارس أرجوبه الدعاء في المدارس
وزيادة على المقدمة الجميلة فقد مهد للموضوع بالكلام عن
الفتوى :

ولم يجز تساهل في الفتوى بل تحرم الفتوى بغير الأقوى
وكل عالم بذاك عرفا عن الفتاوى والقضاء صرفا
والحكم بالضعيف غير هاد ما لم يكن من أهل الاجتهاد
أما المقلد فمحجور عليه وعند ترك راجع رد إليه
لذا قال ذو النظام الفاسي في العمليات فهي فاسي
حكم قضاة الوقت بالشنوذ ينقض لا يتم بالنفوذ
والعلوي نجل إبراهيم قد قال في أصوله تفهيم
وقول من قلد عالما لقي الله سالما فغير مطلق...

ثم تناول الكتب المعتمدة في الفتوى، ومن المفارقة أن بعض
العلماء تكون أعماله مرجعا علميا ولكن أنقاله ليست كذلك :

واعتمدوا المواق في شرحيه لا في النقل بالمعنى فكم قد ذهل
واعتمدوا بهرام لكن في الوسط أقسط في تحقيقه وما قسط...

وهكذا نوازل الوردازي لم تخل من قول بلا إعران
 فربما عن راجع قد مالا في الحكم أو أجمله إجمالا
 وحذر الشيوخ من إجماع نقل ابن عبد البر ذا سماعي
 وحذروا أيضا من اتفاق نقل ابن رشد عالم الآفاق

ثم تناول الكتب التي يعتمد عليها مضييفا كتباً كانت نسبتها إلى
 العلماء نسبة مزيفة :

هذا بيان كتب الشيطان وما من الأقوال للشيطان
 قد حذروا من كتب منسوبة للعلماء نسبة مكذوبة

واستعرض الحديث عن البحث والفهم مبينا أنهما لا يصعدان
 لمرتبة النص وقد أتى على ما يترجح به الضعيف الذي جرى العمل
 به...

شروط تقديم الذي جرى العمل به أمور خمسة غير همل
 أولها ثبوت إجراء العمل بذلك القول بنص ما احتمل
 والثاني والثالث لازمان معرفة الزمان والمكان
 وهل جرى تعميما أو تخصيصا ببلد أو زمن تنصيصا
 وقد يخص عمل بأزمته وقد يعم وكذا في الأمكنه
 رابعها كون الذي أجرى العمل أهلا للاقتداء قولاً وعملاً
 بحيث لم تثبت له الأهلية تقليده يمنع في النقلية
 خامسها معرفة الأسباب فإنها معينة في الباب
 فعند جهل بعض هذا الخمس ما العمل اليوم كمثل أمس

وأفاض في الترجيح بالعرف ودرء المفاصد وتقديم المصالح
 ليسوق النظم بعد ذلك سوقاً إلى طبقات المفتين وشروط ومواصفات
 المفتي، وإنه لصادق إذ يقول في نهايته :

وهاك نظما بارعا قد يشتهى لا ينتهى طلاوة إذا انتهى

4 - مجموعة الفردوس لمؤلفها المرباط باه بن محمد الأمين

اللمتوني :

هذا الكتاب أو هاته الموسوعة من أنفس التصانيف الفقهية، ومخرجها كان عالم الوقت صاحب "محاضرة" توافد عليها الطلاب من كل الفجاج والسبل، وكانت متعددة المشارب متنوعة المعارف متشكلة المذاهب، وقد ضمنها أعمال ستة من المؤلفين بعد أن قدم لها مسائل علمية وقضايا قيمة، ويشير إلى موضوعها إذ يقول :

والله أسأل تمام المنة بجمع أنظام الرجال الستة

من إسمه محمد فال سليل أحمد فال التنذغي الحبر الجليل

ثمة عبد الله وهو ابن حماه السيد الذي للأغلال انتماه

في نظمه نوازل الثلاث مجدد المسائل الرثاث

الأعمش والشريف أعني الحموي وحبر ورزاز والأعلى العلوي

ثمة نظم العالم الميايبي محمد ممثلي العياب

مما به أفتى الفقيه العلوي عبد الإله السيد التيجكوي

ونظمه لزبدة الأوطاب من التزامات الفتى الحطاب

وحيث قال قال فالمفسر هما إذا لم يتبن مفسر

ثمة تلخيص الفتى المختار الجعفري المغفي النجاري

ثم مفيد ولد الخراشي محمد مطالع الحواشي

ثم المسمى واضح المسالك لنجل يحظيه الفقيه الناسك...

سميته الفردوس أرجوه به لي ولن حصله من ناب

فردوس أبصار أولي البصائر جنة عدن العين والضماير

وقد تجاوز هذا النظم اثنتي عشرة ألفا وهو موجود بالمعهد العالي مصورا كما هو عند أبنائه.

هذا ما سمحت به الظروف وناولته المصادر، على ضعف الأهلية العلمية لدى الباحث، وقلة الوسائل وانعدام الدراسات والبحوث في هذا المجال، الشيء الذي يقرر مفارقة عجيبة وبونا شاسعا بين واقع المختصر الحاضر وماضيه الغابر.

فقد تبين بالتدليل والبرهنة أن المختصر قد أقام دنيا الثقافة وأقعدتها في تلك الربوع وانعكس ذلك جليا في عدد من الشروح وتجسم بالأنظام والتعاليق، وتبين في الطرر والشواهد والأعمال العلمية.

أما والحالة هذه في الماضي فإن الواقع الراهن يختلف عنه كما وكيفا، فالإقبال العلمي عليه يتضاءل ليصل في السنوات المقبلة إلى درجة الصفرم حيث الدرس والتدريس بالنسبة لطلاب العلم، ومن حيث الخدمات والعناية به في مجال الشرح والتأليف، فلم يظهر أي اعتناء به إلا ماكان من نظم محمد سالم بن عدود له، وتأصيل بعض المعاصرين لما أمكنهم من أحكامه.

على أنه لا يزال من الشباب وحملة العلم حفاظ له معنيون بغرائب ولطائفه، ولعل هذه المحاولة المتواضعة تكون بادرة لكسر الحواجز بين الدراسات الحديثة وهذا المختصر، فعسى جميع الباحثين من الأجيال الصاعدة أن يعنوا به فيعطوه حقه من الدرس والتمحيص.